

الحكمة من كتمان الذنوب

إذا كان الشرع قد جاء بالرخصة في إظهار الطاعات، وخصوصًا الفرائض بل والنوافل في بعض الأحيان، لتحقيق أهداف معروفة فإنه لم يشرع إظهار المعاصي والإعلان عنها، بل أمر بإخفائها إن وقعت، وكتمانها عن الغير ما استطاع، لا مراعاة للناس، ولا طلبًا لثنائهم، وظهورًا بصورة يحبونها، وإن كانت غير صورته الحقيقية.

بل إنما يحمد كتمان الذنوب، وكراهة إطلاع الناس على العيوب، لعدة أسباب؟

أولاً: لأننا مأمورون إننا إذا ابتلينا بمعاصي الله أن نستتر بستره سبحانه، ولا نفصح أنفسنا، وفي الحديث: “اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها، فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله تعالى”.

من أجل هذا يكره ظهور المعصية من غيره، كما يكرهها من نفسه، وفي الصحيح: “لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه”، ومفهومه: أن يكره له ما يكره لنفسه.

ثانيًا: للتحامي عن هتك ستره، وظهور أمره، خوفا من سقوط وقع المعاصي من النفس، وجرأتها عليها، فإن النفس متى ألفت ظهور الذنوب، زاد انهماكها فيها، واسترسلت في شهواتها بارتكابها، ولم تبال باجتنابها.

وهذا الخوف من هتك الستر في الدنيا يتبعه خوف من الهتك في الآخرة، وهو أشد وأخزى. ولهذا يقول الطيبون: اللهم كما سترت علينا في الدنيا، استر علينا في الآخرة، ولا تفضحنا على رؤوس الأشهاد، يوم العرض عليك.

ثالثًا: لئلا يقلده غيره، فيكون سببا في انتشار معاصي الله في الأرض، وتجري الناس عليها، فحسبه أن يتورط هو في المعصية، ويسأل الله التوبة والمغفرة، ولكن لا يظهرها فتشيع وتتسع، فإنها تعدى كما يعدى الأجراب السليم، وتؤدي كما يؤدي نافخ الكير جاره، فإذا غرق هو، فهو يكره أن يغرق غيره معه.

ولهذا ينبغي للعاصي أن يخفي معصيته حتى عن أقرب الناس إليه، مثل أهله وولده، وخادمه، حتى لا يتأسوا به.

رابعًا: ليكون في مظنة العفو والمعافة من الله تعالى، ولا يدخل في زمرة المتبجحين المجاهرين بالسوء، المتفاخرين بما ارتكبوا من موبقات، وما اصطنعوا من مغامرات، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: “كل أمي معافي إلا المجاهرين، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح، وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه”.

خامسًا: ليكون من أهل الحياء، الذين يمنعونهم حياؤهم وسلامة طبعهم من إظهار المعصية، وفي الصحيحين عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء. فقال: “دعه، فإن الحياء من الإيمان”.

وفيها عن أبي هريرة: “الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان”.

وفيها عن عمران بن حصين: “الحياء لا يأتي إلا بخير”.

سادسًا: ليدخل في زمرة المشهود لهم من الأمة بالخير، والناس شهداء الله في الأرض، وكما قيل: ألسنة الخلق أقلام الحق، وكما قال النبي ﷺ للصحابة في جنازة مرت فأتوا عليها خيرا فقال: “وجب”، وأخرى أثوا عليها شرا” فقال: “وجب”، فقال عمر بن الخطاب: ما وجبت؟ قال: “هذا أثيتم عليه خيرا، فوجب له الجنة، وهذا أثيتم عليه شرا فوجب له النار، أنتم شهداء الله في الأرض”.

وقال عليه الصلاة والسلام: “ما من مسلم يموت يشهد له أهل أربعة آيات من جيرانه الأدينين: إنهم لا يعلمون إلا خيرا، إلا قال الله: قد قبلت علمكم فيه، وغفرت له ما لا تعلمون”.

سابعًا: لئلا يتسبب في ذم الناس له، فيقعوا في المعصية بسبب هذا الذم، أو يتجاوزهم الحد، حتى يذم بما ليس فيه، أو بأكثر مما فعل، كما هو المعتاد في مثل هذه المواقف، وهو لا يحب أن يعصى الله تعالى بسببه، ويكفيه ما ابتلي به من معصية، وهو لهذا يتألم إذا ذم الناس غيره من العصاة كما يتألم لذم نفسه.

ثامنًا: لئلا يتألم بزم الناس إذا اطلعوا على معصيته، فإن الذم مؤلم للقلب، وهذا أمر جبلي فطر عليه الإنسان، كما أن الضرب يؤلم الجوارح بالطبع، وربما صار هذا التألم . وخصوصا إذا استمر واشتد . مانعا من الخشوع في العبادة، بسبب الانفعال والتوتر الناشئ عن تألمه.

ولا جناح على المسلم أن يبتعد ويهرب من كل ما يؤلم جسده أو قلبه، فليس هذا بحرام.

وإن كان المقام الأعلى أن تزول عنه رؤية الخلق، فيستوي عنده ذامه ومادحه، لعلمه أن الأمر كله بيد الله تعالى، وأنه هو الضار النافع، وأن العباد كلهم مقهورون تحت سلطانه، روى الترمذي من حديث البراء بن عازب وحسنه: أن رجلا قام فقال: يا رسول الله، إن حمدي زين، وإن ذمي شين! فقال عليه الصلاة والسلام “ذاك الله عز وجل”.

تاسعًا: لخوفه أن يقصد بسوء أو أذى إذا ظهرت معصيته، وهذا أمر وراء الذم، فإن الذم مكروه من حيث يشعر القلب بنقصانه، وإن كان ممن يؤمن شره، وهنا يخاف شر من يطلع على ذنبه، ولا حرج على المسلم أن يجنب نفسه الأذى بتجنب أسبابه ما استطاع.